International Journal of Arabic Linguistics

Bassiouney, Reem (2009) *Arabic Sociolinguistics*. Edinburgh University Press: Edinburgh; pp.311 + i-xiv

د. عماد عبد اللطيف

Emad Abdul-Latif

Qatar University

خضعت اللغة العربية لبحث معمّق من منظور اللسانيات الاجتماعية لأكثر من نصف قرن. فقد كانت العربية إحدى اللغات التي عالجها تشارلز فيرجسون في دراسته الشهيرة عن الازدواج اللغوي أواخر الخمسينيات[1]. ومنذ ذلك الحين، نالت ظواهر لغوية مثل الازدواج اللغوي، وتحويل الشفرة، وثنائية اللغة، والسياسات اللغوية، اهتمامًا متواصلا من الباحثين. وعلى الرغم من صدور عشرات المقالات وبعض الكتب المحررة حول اللسانيات الاجتماعية في العالم العربي، فقد انتظر هذا الحقل المعرفي حتى عام 2009، لكي يصدر أول كتاب لمؤلّف منفرد يُقدّم مدخلا للسانيات الاجتماعية للغة العربية. حمل الكتاب عنوان "اللسانيات الاجتماعية للغة العربية: موضوعات في الازدواج اللغوي والنوع والهوية والسياسة"، ونشرته دار نشر جامعة إدنبره البريطانية العريقة. كان الكتاب هو ثاني الكتب الأكاديمية المنشورة لمؤلفته الدكتورة ريم بسيوني، أستاذ اللسانيات العربية في جامعة جورج تاون الأمريكية في ذلك الوقت. وذلك بعد كتابها الأول الذي خصصته لدراسة وظائف تحويل الشفرة اللغوية code-switching في مصر (2006، نشر دار برايل، ليدن، هولندا). وقد واصلت في مدخلها للسانيات الاجتماعية في اللغة العربية شغفها بتحليل شواهد خطابية من اللغة العربية في سياقات تواصل فعلية، والبحث في الوظائف والأغراض التي تُنجزها اللغة في ظروف متنوعة.

تبدأ المؤلّفة كتابها بعبارة ذائعة الصيت هي "الأرض بتتكلم عربي"، التي كانت مطلع قصيدة شهيرة تحمل العنوان نفسه للشاعر المصري فؤاد حداد. وتنطلق من هذه العبارة نحو طرح أسئلة متعددة حول هوية "العربي"، الذي تتكلمه الأرض بحسب هذه العبارة. وتركز على واقع التعدد اللغوي في العالم العربي،

[1]Ferguson, C. A. (1959). Diglossia. *Word*, *15*(2), 325-340.

والأسئلة المعرفية التي لابد أن يطرحها هذا التعدد. وتتخذ من أحداث حياتية بسيطة، منطلقًا لطرح الإشكالات البحثية الأساسية لكتابها. وهو مدخل ناجع إلى حد كبير؛ لأنه يبرهن على ارتباط القضايا التي يُعالجها الكتاب بمشكلات مجتمعية فردية (مثل صعوبات التواصل بين مستعملي اللهجات العربية المحلية)، واجتماعية (مثل العلاقة بين اللغة والنوع)، ووطنية (مثل مشكلات لغات الأقليات العرقية).

تخصص المؤلّفة جزءًا من مقدمة الكتاب للبرهنة على أهمية معالجة اللغة العربية من منظور اللسانيات الاجتماعية. وتقدم استعراضًا سريعًا لنشأة اللسانيات الاجتماعية، وتطور دراسة اللغة العربية من منظورها. وتلخص في خاتمتها هدف الكتاب بأنه "بيان كيف يمكن تطبيق نظريات اللسانيات الاجتماعية على اللغة العربية، والعكس، أي ما الذي يمكن أن تقدمه دراسة العربية لفهم وظيفة اللغة في المجتمع" (ص 6).

ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول، يبدأ كلٌّ منها بمناقشة للكتابات السابقة المنجزة حول موضوع الفصل غربيًا وعربيًا. ويقدم أولها إطلالة على حال استعمال اللغة في العالم العربي الراهن. ينقسم إلى قسمين يتعامل الأول مع موضوعات مرتبطة بالازدواج اللغوي diglossia والثاني مع موضوعات متعلقة بالتنوع اللغوي المحلي، والمجموعات اللهجية. ويركز الفصل على تقديم معلومات وحقائق بشأن وضعية الازدواج اللغوي واللهجات في العالم العربي. وتخلص المؤلّفة من هذا الفصل إلى أن العرب يدركون كل التنويعات اللغوية بوصفها "لغة عربية". كما أن التنويعات اللغوية المدروسة تنتمي إلى أقطار عربية تجعل من العربية الفصحى اللغة الرسمية الوحيدة لها. وترى المؤلفة أن تعقيد الموقف اللغوي يزداد إذا وضعنا في الاعتبار أن المتحدثين الأصليين للعربية لا يميزون بين الفصحى الكلاسيكية والمعاصرة، ومن ثمّ فإنهم يعتقدون بوجود لغة واحدة معيارية (ص 26).

أما الفصل الثاني فيفحص التحول في الشفرة اللغوية، ويقدم استعراضًا شاملا لنظريات تحويل الشفرة، التي تسعى للإجابة عن أسئلة تخص كيفية حدوث التحويل، ومحفزاته. وينقسم الفصل إلى قسمين يفحص الأول القيود الهيكلية على تحويل الشفرة اللغوية التقليدية، وهي التحول بين لغتين، حين تكون إحداهما لهجة من اللهجات العربية. في حين يشرح القسم الثاني المحفزات الاجتماعية والوظائف الخطابية لتحويل الشفرة اللغوية في حالة اللغة العربية. وتقترح المؤلّفة في خاتمة فصلها دراسة الازدواج اللغوي تحت مظلة الإطار التحليلي لتحويل الشفرة اللغوية. وتذهب إلى أن تطبيق نظريات تحويل الشفرة اللغوية على الازدواج اللغوي يمكن أن يعزز من فهمنا للازدواج اللغوي في العالم العربي. وتخلص من هذا الاستنتاج

إلى ضرورة مواصلة البحث في الازدواج اللغوي (الانتقال بين الفصحى والعامية) بوصفه جزءًا من تحويل الشفرة اللغوية، مقارنة بما أُنجز من بحوث حول التحويل التقليدي للشفرة اللغوية (التحول من لغة إلى لغة أخرى، مثل التحول من العربية إلى الإنجليزية).

يتناول الفصل الثالث نظريات ثلاث وُظِّفت لتفسير التنوع الأسلوبي؛ وهي نظرية الطبقات الاجتماعية، ونظرية الشبكات الاجتماعية، ومقاربة الموجة الثالثة لدراسة التنوع اللغوي. وتُلقي المؤلفة في هذا الفصل الضوء على البحوث الكمية لدراسة التنوع اللغوي، والمشكلات المرتبطة بها. كما تدرس متغيرات محددة تحفز التنوع اللغوي، مركزة على الازدواج اللغوي، والمستويات اللغوية. وتخلص المؤلِّفة إلى أن العرق والدين يُعدان من المتغيرات التابعة الأساسية في الحالة اللغوية في العالم العربي والغربي على حد سواء. ومع ذلك، فإن تعقيدات العرقية والدين مختلفة في العالم العربي؛ حيث العرقية ممتزجة إلى حد بعيد بأحداث سياسية وتاريخية وقومية. كما أن الدين يلعب في العالم العربي دورًا رئيسًا في تحديد الانتماءات السياسية، والشبكات الاجتماعية، وجماعات الممارسة. وفيما يتعلق بمتغير الطبقة الاجتماعية، تستنتج المؤلفة أن التفاعل بين الطبقة الاجتماعية والشبكات الاجتماعية أمر حاسم. ومع ذلك،تحاجج المؤلفة بأن أكثر المتغيرات خصوصية في العالم العربي مقارنة بالغرب هو متغير التمدين؛ إذ أدى اتساع نطاق المدن إلى إحداث تغيرات سكانية جذرية، نتج عنها تنوعًا وتغيرًا لغويين (ص 122).

يركز الفصل الرابع على دراسة النوع لغويًا، ويبدأ بعرض النظريات المتنوعة التي تفسر العلاقة بين النوع واللغة، وتستعرض المؤلّفة الانتقادات الموجهة إلى المقاربات الكمية لدراسة العلاقة بين اللغة والنوع، والتي تتأسس على جمع بيانات إحصائية تخص بِنَى محددة من أبنية الاستعمال اللغوي عند الرجال والإناث. وتشير تحديدًا إلى صعوبة الحصول على بيانات كافية للدراسة المقارنة. كما تلفت الانتباه إلى ضرورة توسيع مجال البحث في علاقة اللغة بالنوع لتشمل العلاقة بين النوع وتحول الشفرة اللغوية. وتدرُس المؤلفة في هذا الفصل تحديدًا كلام النساء المصريات المتعلمات، وتبرهن على أن خصائص كلامهن تمثل تحديًا للتصورات العامة حول النوع. وعلى الرغم من أن المؤلفة درستْ التفاعل بين النوع والعوامل التابعة المؤثرة في التنوع اللغوي، فإنها تصل إلى نتيجة فحواها أن النوع ليس هو بالضرورة العامل الأكثر تأثيرًا في التنوع والتغير اللغويين، وأنه لا يعمل مستقلا عن العوامل الأخرى، بل يتفاعل بطرق معقدة مع متغيرات اجتماعية أخرى مثل الطبقة والتعليم والعرق.

يتعامل الفصل الأخير مع موضوع هو الأكثر حساسية في العالم العربي، أعنى العلاقة بين التنوع اللغوي والسلطة. وتدرس المؤلّفة حالات محددة من بين السياسات اللغوية والشئون السياسية في العالم العربي، مركزة على حالات دراسة، مبرزة أثر العوامل التاريخية والسياسية في السياسات اللغوية، والعلاقة بين السياسات اللغوية والإيديولجيات اللغوية. ويركز هذا الفصل كذلك على دراسة وضع اللغة العربية واللغات الأجنبية في النظام التعليمي لبلدان العالم العربي، وعلى الحقوق اللسانية.

تختتم المؤلفة كتابها بنتائج عامة، بشأن العلاقة بين دراسة الازدواج اللغوي وتحويل الشفرة اللغوية، وموقف المفحوصين العرب من الدراسات التي تخص السياسات اللغوية في بلادهم على سبيل المثال. وتُسائل ريم في هذه الخاتمة جدوى التطبيق الحرفي لنظريات اللسانيات الاجتماعية الغربية على اللغة العربية، وترى أن التطبيق الأعمى لهذه النظريات لا يصلح مع الأقطار العربية المختلفة. فعلى الرغم من أن طرق جمع البيانات الغربية، بدت مفيدة في حالة اللسانيات الاجتماعية العربية، فإن نتائج البحث تختلف من عدة وجوه، منها أن المتغيرات المؤثرة في التغير والتنوع اللغويين في العالم العربي مختلفة عنها في الغرب، بسبب طريقة بناء المجتمعات والحفاظ عليها. وعلى نحو أكثر تحديدًا، فإن المتغيرات التابعة مثل الدين والعرق والطبقة الاجتماعية لها مفهوم مختلف في العالم العربي.

على مدار الكتاب، تُلح المؤلّفة على خصوصية المجتمعات العربية، وخصوصية الاستعمالات اللغوية فيها. وتُعدد بعض مظاهر هذه الخصوصية؛ مثل التجليات الخاصة بالتنوع اللغوي بين الفصحى والعامية، ووضعية اللغات الأجنبية، والوضعيات اللغوية في سياق التحولات السياسية والاجتماعية الجذرية التي خضعت لها الدول العربية على مدار القرن الماضي. وتبرهن أن النظريات اللسانية الاجتماعية الغربية، التي صاغت أطروحاتها انطلاقًا من تحليل مدونة لغوية ذات خصائص بنيوية وسياقية مغايرة لتلك العربية، تحتاج إلى تكييف متبصر حتى تستطيع تفسير الواقع اللغوي العربي. ولا تني تُكرر أهمية الحاجة إلى إنجاز دراسات معمّقة للواقع اللغوي العربي شديد الثراء. هذا الشغف بدراسة واقع الاستعمال اللغوي العربي مدفوع بمبررات علمية مقنعة، لكنه ربما يكون مدفوعًا أيضًا بإدراك غير معلن للوضعية اللغوية الخاصة بذات المؤلّفة، أقصد د. ريم بسيوني نفسها.

يمكن أن نعُدَّ ريم موضوعًا جيدًا لبحثٍ في اللسانيات الاجتماعية، فهي المصرية السكندرانية تكتب أعمالا روائية بعربية فصحى معاصرة، متخليةً عن عاميتها السكندرية الرشيقة، التي لا تظهر حتى في حواراتها الشخصية مع نظرائها من الباحثين، إذ تحل عامية القاهرة الأكثر انتشارًا محلها. وحين تكتب

بحوثها، تغادر أفق لغاتها الأم بأسرها، لتحلق في فضاء الإنجليزية. هذا الازدواج والتنوع اللساني عند ريم، يوازيه ازدواج آخر في اهتماماتها التأليفية. فللدكتورة ريم بسيوني انشغالان أساسيان، أولهما أكاديمي هو دراسة اللغة العربية في استعمالاتها اليومية في السياسة والأدب والحياة اليومية...إلخ. وثانيهما إبداعي هو حكي قصص حياة شخصيات عربية متخيلة، في أعمال روائية وقصصية متنوعة. ومن الجلي أن الاختيارين، عند ريم، وثيقا الصلة على نحو عميق. فحين نروي قصص البشر، فإننا نروي بالأحرى سيرتهم مع اللغة التي يحيونها ويحيون بها. وما الرواية، في أحد وجوهها، إلا صياغة إبداعية لفن القيل والقال. أما دراسة اللغة في المجتمع، فهي تحكي بدورها قصة البشر الذين يحيونها، وسيرورة علاقتهم بأداة التواصل السحرية فيما بينهم. وقد قدمت لنا ريم في كتابها قصة طريفة عن علاقات اللغة والمجتمع في العالم العربي، حبكتها بأدوات معرفية معقدة، مستمدة من اللسانيات الاجتماعية. ولأن حياة اللغة تتطور باستمرار، فما زلنا بحاجة إلى دراسات أخرى، تحكي بأساليب علمية، تطور القصص التي لا تنتهي للغة البشر.